التواصل اللغوي من خلال النص القرآني

(قراءة في لغات القرآن)

رشيد بلحبيب

الأستاذ في كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة محمد الأول ـ المغرب

مدخل

ليس غريباً أن يرتبط مصطلح التواصل باللغة ارتباط تلازم، لأن الوظيفة الأساس للغة وظيفة إبلاغية تواصلية بحكم اجتماعية الإنسان وحاجته إلى غيره، وقد حصر كثير من العلماء وظيفة اللغة في التواصل، وجعلوا هذا المصلح ضمن تعاريفهم العلمية الدقيقة للغة، يقول ابن جني في "باب القول على اللغة وماهي: أما حدها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[1]، فقوله: "يعبر بها كل قوم" حصر للوظيفة في المجال التواصلي.

ويذهب هرمان بول[2] إلى أن الوظيفية الأساسية للغة أن تكون أولاً وقبل كل شيء وسيلة لنقل العواطف والمعلومات أو سواهما من الأمور.

وذلك أن اللغة هي العامل المشترك بين عناصر العملية التواصلية من مرسل ورسالة ومستقبل واتصال، وغني عن البيان أن هذه العناصر جميعاً حلقات متصلة متكاملة.

إن من أثر الإلطاف بالعباد -كما يقول الكفوي- حدوث الموضوعات اللغوية ليعبر كل إنسان عما في نفسه مما يحتاج إليه لغيره، حتى يعاونه عليه لعدم استقلاله به، ولهذا يقال: الإنسان مدني بالطبع لاحتياجه إلى أهل المدنية[3]، وإذا

(١) الخصائص، لابن جني ١/ ٣٣ تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي ١٩٥٢م.

(٢) نحو بلاغة جديدة، د. عبد المنعم خفاجي، د. عبد العزيز شرف، فصل البلاغة في نظرية الإعلام، ص ٨٧.

(٣) الكليات، للكفوي، ٥/ ٣٣، تحقيق عدنان درويش، محمد المصري، دمشق ١٩٨٢م، وانظر: البلغة في أصول اللغة، للقنوجي، ص ٩٨.

كانت اللغة أداة تواصل تحلل بواسطتها التجربة البشرية، فإن علماء اللغة ذهبوا إلى أبعد من ذلك عندما بحثوا في سبل التواصل لدى العجماوات يقول الجاحظ: "فحوائج السنانير لا تعدو خمسة أوجه منها: صيحاها إذا ضربت ولذلك صورة، وصياحها إذا دعت أخواتها وإلآفها وذلك صورة، وصياحها إذ دعت أولادها للطعام ولذلك صورة، وصياحها إذا جاعت ولذلك صورة، وأصواتها تلك فيما بينها هو كلامها" (١). وتلك الصور هي طرق التواصل المتبادل المفهوم لديها.

إلا أن التواصل باللغة يعد أهم وأرقى وسائل التواصل، يقول الإمام فخر الدين الرازي في هذا السياق: "إن الإنسان الواحد وحده لا يستقل بجميع حاجاته، بل لابد من التعاون، ولا تعاون إلا بالتعارف، ولا تعارف إلا بأسباب كحركات أو إشارات أو نقوش أو ألفاظ توضع بإزاء المقاصد، وأيسرها وأفيدها الألفاظ. أما أنها أيسر فلأن الحروف كيفيات تعرض لأصوات عارضة للهواء الخارج بالتنفس الضروري المحدد. . . دون تكلف اختياري، وأما أنها أفيد فلأنها موجودة عند الحاجة معدومة عند عدمها، وأما أنها أعمها فليس يمكن أن يكون لكل شيء نقش كذات الله تعالى والعلوم، أو إليه إشارة كالغائبات، ويمكن أن يكون لكل شيء لفظ، فلما كانت الألفاظ أيسر وأفيد وأعم؛ صارت موضوعة بإزاء المعاني" (٢).

يتضح من خلال هذا النص الارتباط الوثيق بين اللغة والاتصال، واعتبار اللغة أهم وسيلة في عملية التحرير لا تعني أن اللغة والاتصال مترادفان، يقول كولين: "فاللغة اللسانية ليس في كل الأحوال مرادفة للاتصال، لأن هناك الإشارات والعلامات مما يقوم بوظيفة اللغة اللسانية" (٣).

(١) الحيوان، للجاحظ، ٤/ ٢١، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط ٢، ١٩٦٥م.

(٢) المزهر ١/ ٣٨، تحقيق محمد أحمد جاد المولى، على البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية.

(٣) New colin- Communication p 67. وانظر : نحو بلاغة جديدة، ص : ٥٧ .

نحو مفهوم بلاغي للتواصل:

يلاحظ المتتبع لهذه الظاهرة تقارباً شديداً بين التعاريف المصوغة للاتصال والمفهوم العربي للبلاغة التي تنبئ لغة عن الوصول والانتهاء والإيصال [١]. إنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ[٢].

وقد تنبه علماء البلاغة العربية إلى أن اللغة هي الجنس الإعلامي، وتحدثوا عن صفات المتكلم والمستقبل، وألحوا على ضرورة معرفة المتكلم (المرسل) لأقدار المعاني، والموازنة بينها وبين أقدار المستمعين (المستقبل) وبين أقدار الحالات، فجعلوا لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حال من ذلك مقاماً، حتى يقسم المتكلم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات[٣]، ولعل هذا هو ما انتهى إليه علماء البلاغة في كلمتهم الموجزة (مطابقة الكلام لمقتضى الحال).

وعلى هذا يمكننا أن نقول: إن نموذج البلاغي العربي في الاتصال يختلف عن كثير من النماذج التي وصفت عملية الاتصال، إذ لم يقتصر هذا النموذج على الخصائص البنائية للاتصال، أي على المكونات مثل المصدر والرسالة والوسيلة والمستقبل، بل يهتم أيضاً بالعلاقة الوظيفية التي تحكم الجوانب التكوينية، وهو يؤكد ـ كما يؤكد بارنلند ـ أن الاتصال عملية، ويركز على العلاقات الفعلية التي تدخل في ظاهرة الاتصال[٤].

(١) قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، د. أميل يعقوب، بسام بركة، مي شيخاني، ١٥٤، ولسان العرب (بلغ) دار المعارف، مصر، والمصباح المنير للفيومي (وصل) ص: ٦٦٢، المكتبة العلمية بيروت.

(٢) انظر ما حكاه الجاحظ في حد البلاغة، البيان والتبيين ٨٨/١، تحقيق عبد السلام هارون.

(٣) الإيضاح للقزويني، ص ٧٩، شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني.

(٤) نحو بلاغة جديدة، ص ٦٢ .

ارتباط التواصل بالمجال اللغوي:

لقد تقرر من الناحية المعرفية ـ استعمال مصطلح التواصل في عالم الاتصالات البريدية ـ حيث ترسل البرقيات والرسائل من جهة إلى أخرى عن طريق قناة اتصال، وشاع استعماله في مرسلات العسكرية الأمريكية المشفرة التي انتشرت إبان الحرب العالمية الثانية، وقد كانت هذه المرسلات متميزة بالاقتضاب والإيغال في الرمزية، لأن حمولتها الخطيرة السرية لا ينبغي أن يطلع عليها غير المعني بالأمر، ولما كان الأمر متعلقاً بالرسالة أو المرسلة وبدراسة رموزها وإمكانات الاختزال اللغوية فيها علق المصطلح بعالم اللغويات، وأصبحت أحق الحقول المعرفية به، ففي مجال اللغويات أخذ التواصل بُعده الاصطلاحي وشيوعه الاستعمالي.

يقول الأستاذ عبد القادر المهيري: "فإذا كان دور اللغة هو توفير أسباب التواصل فإن دراسة اللغة ينبغي أن تراعي ذلك، فكل ما يضطلع بدور التواصل ينتمي إلى اللغة، وكل ما ليس له مثل هذا الدور فهو خارج عنها" (١).

إن مشكلة هذا المصطلح مشكلة في جوهرها تتنازعها علوم البلاغة واللسانيات والإعلام والحضارة، إلا أن استعمال اللغوي للاتصال استعمال بمدلوله الاصطلاحي في حين تستعمله باقي العلوم والحقول المعرفية بمعنى هو أقرب إلى التعريف اللغوي منه إلى التعريف الاصطلاحي.

ولذلك لا عجب أن نجد عدداً من المؤلفات ـ لاصلة لها بالمجال اللغوي ـ تحمل لفظ التواصل عنواناً لها أو لبعض فصولها، كما لانعجب عندما نجد عدداً من الباحثين يدرجون بحوثهم معنونة بمصطلح التواصل بمعنى الإيصال والتوصيل، أو الإبلاغ والتبليغ.

(١) أهم المدارس اللسانية، مبحث اللسانيات الوظيفية، عبد القادر المهيري، ص : ٤٠

جنسية القرآن اللغوي:

لا جرم أن القرآن سر السماء، فهو نور الله في أفق الدنيا حتى تزول، ومعنى الخلود في دولة الأرض إلى أن تدول[1].

والقرآن الكريم هو الشاهد اللغوي والبلاغي الرفيع، الذي لايجوز عليه بدل الغلط، وهو رسالة اجتمعت لها كل شروط المرسلة الناجحة المعجزة، رسالة من مرسل خبير عليم إلى أصناف البشر قاطبة، راعت أحوالهم وعقولهم ومقاماتهم وأفهامهم، جمع كل وظائف الاتصال التعبيرية والإعلامية والإقناعية، فكان أجدر نصوص العربية بالدرس، وأحق النصوص المنزلة بالاتباع.

ولأن الحديث عن اللغة العربية يستدعي الحديث عن القرآن الكريم، كما أن الحديث عن القرآن يستدعي الحديث عن العربية ـ إذ كلاهما يتعلق بالآخر تعلق استلزام ـ وددت أن أبحث في لغة القرآن باعتبارها شكلاً من أشكال الوحي المعجز، لأن للقرآن شكلاً ومضموناً، يتمثل مضمونه في المعاني التشريعية السامية، ويتمثل شكله ووعائه في اللغة التي تعد حصيلة دقيقة ومحكمة لعدد من اللغات فاقت الثلاثين.

وقد كان العلماء على وعي بأهمية البحث في لغة القرآن إلى درجة أن جعلوها من الدين، يقول ابن تيمية: "إن اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا باللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب"[2].

---

(١) انظر إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، ص: ١٧، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٢٦م.

(٢) نحو وعي لغوي، مازن المبارك المقدمة.

كما ربط الإمام الشاطبي التقـدم في فهم الدين بالتقدم في فهم العلوم اللغوية، يقول: "إن الشريعـة عربية، وإن كانت عربيـة فلايفهمهـا حق الفهم إلا من فهم العربية حق الفهم، لأنهما سيان في النمط، فإذا فرضنا مبتدئاً في فهم العربية فهو مبتدئ في فهم الشريعة، أو متوسطاً فهو متوسط في فهم الشريعة، فإن انتهى إلى درجة الغاية في العربية كان كذلك في الشريعة"(١).

العربية قبل نزول القرآن:

انقسم المتكلمون باللغة العربية ـ منذ أقدم عصورهم ـ إلى قبائل شتى وطوائف قدداً، تختلف كل طائفـة منها عما عداها في بيـئتها الجغـرافية وظروفها الطبيـعية والاجتمـاعية، ومن المقـرر في قوانين اللغات أنه متى انتـشرت اللغة في مـساحة واسعة من الأرض، وتكلم بها طوائف مختلفة من الناس اسـتحال عليها الاحتفاظ بوحدتها الأولى أمداً طويلاً، فلا تلبث أن تتشعب إلى عدة لهجات(٢).

ولم تلفت اللغـة العربية، ومـا كان لها أن تفلت من هـذا القانون العام، فـقد انقسـمت منذ أقدم عصورها إلى لجـهات يختلف بعـضها عن بعض في كثـير من مظاهر الصوت والدلالة والقواعد والمفردات.

وقد أتيح لهذه اللهجـات المتعددة فرص كثيرة للاحتكاك بفـضل التجارة وتبادل المنافع والتنقل في طلب الكلأ والتـجمع في الحج والأسواق والحـروب والمحافل، وفي كل مناسبـة من مناسبات اللـقاء هذه كانت اللغـة عنصراً أساسـاً من عناصر التواصل والاحتكاك، وكانت الأسـواق الأدبية أكثر تلك المناسبات مـلاءمة لتوطيد عرى اللغة المشتركة قصد صياغة الجنسية اللغوية للقرآن الكريم، فلما بدأت عوامل

(١) الموافقات، للإمام الشاطبي، ٥/ ١١٤، طبع بعناية عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت .

(٢) علم اللغة، علي عبد الواحد وافي، ص : ١٦٩ .

الوحدة السياسية والثقافية بين القبائل؛ تهيأت كل الظروف لجعل مكة مركزاً لتلك الوحدة[1]، فكان من نتائج هذا الاحتكاك أن تداخلت هذه اللهجات وصارت نحو التوحد بين عامة قريش وباقي القبائل العربية.

وقد تراكمت النصوص المؤكدة لهذه الحقيقة التي عدها الشيخ الرافعي حادثة كونية، فيقول: "فلابد من التسليم بأنها حادثة كونية من خوارق النظام الطبيعي ظهرت نتيجتها في نزول القرآن بلغة قريش"[2].

ولعل من أوضح النصوص وأكثرها إبانة عما نحن بصدده قول ابن فارس: "أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغتهم وأيامهم ومحالهم أن قريشاً أفصحهم ألسنة وأصفاهم لغة، وذلك أن الله ـ جل ثناؤه ـ اختارهم من جميع العرب، واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمداً ﷺ، فجعل قريشاً قطان حرمه وجيران بيته الحرام وولاته، فكان وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج، ويتحاكمون إلى قريش في أمورهم...، وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقتهم التي طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب"[3].

وقال ثعلب: "ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم وكشكشة هوازن وتضجع قيس وعجرفية ضبة وتلتلة بهراء"[4].

(١) انظر: تفصيل هذا الأمر: لغة القرآن الكريم في جزء "عم"، محمود أحمد نحلة، ص: ٥٩. ولغة القرآن الكريم، د. عبد الجليل عبد الرحيم، ص: ٤٢ وما بعدها.

(٢) انظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: ٨٦.

(٣) الصاحبي في فقه اللغة، أحمد بن فارس، ص: ٣٣، تحقيق أحمد صقر، ط. عيسى البابي ١٩٧٧م.

(٤) مجالس ثعلب ١/ ١٠٠، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف.

ونقل في السياق نفسه ابن منظور قول قتادة: "كانت قريش تجتبي أفضل لغات العرب حتى صار أفضل لغاتها لغتها فنزل القرآن بها"(١). ولكن هذا لايعني أن هناك ترادفاً بين لغة قريش ولغة القرآن الكريم، يقول ابن عبد البر في دفع الالتباس: "قول من قال: نزل القرآن بلغة قريش معناه عندي في الأغلب، لأن لغة غير قريش موجودة في القرآن من تحقيق الهمزة ونحوها، وقريش لا تهمز"(٢).

أما المفاضلة بين اللهجات العربية ففي دائرة الفصيح والأفصح، لأنها كلها حجة كما يقرر ابن جني(٣)، ولأن كل عربي لم تتغير لهجته ـ كما يقول المبرد ـ فصيح على مذهب قومه، وإنما يقال: بنو فلان أفصح من بني فلان، أي أشبه بلغة القرآن ولغة قريش على أن القرآن نزل بكل لغات العرب (٤).

وحتى لاتتضخم صورة الاختلاف بين اللهجات العربية أجدني مضطراً إلى ذكر من أي الأوجه كان هذا الاختلاف، يقول ابن فارس في قولة جامعة ما نصُّه: "اختلاف لغات العرب من وجوه: أحدها الاختلاف في الحركات نحو نَستعين ونِستعين، الاختلاف في الهمز والتليين نحو: مستهزئون ومستهزون، ومنه الاختلاف في التقديم والتأخير نحو: صاعقة وصاقعة، ومنه الاختلاف في الإمالة والتفخيم، ومنه الاختلاف في التذكير والتأنيث، فإن من العرب من يقول: هذه البقر وهذه النخل، ومنهم من يقول: هذا البقر وهذا النخل، ومنها الاختلاف في الإدغام نحو: مهتدون ومهدون، ومنها الاختلاف في الإعراب نحو: ما زيد قائماً، وما زيد

(١) لسان العرب، مادة (عرب)، دار المعارف.

(٢) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ١/ ٢٨٤، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط ٣، ١٩٨٠ م.

(٣) المزهر، السيوطي، ١/ ٢٥٧ .

(٤) الفاضل، المبرد، ١١٣، تحقيق عبد العزيز الميمني الراجكوتي، ١٩٥٥م.

قائم، وإن هذين وإن هذان، ومنها الاختلاف في صور الجمع نحو: أسرى وأسارى، ومنها الاختلاف في الوقف على هاء التأنيث مثل هذه أمه وهذه أمة، ومنها الاختلاف في الزيادة نحو: انظر وانظور، وكل هذه اللغات مسماة منسوبة إلى أصحابها، وهي وإن كانت لقوم دون قوم فإنها لما انتشرت تعاورها كل"[1].

وقد جاءت معظم هذه الخصائص اللهجية ممثلة في القرآن الكريم واتضحت بصورة أخص في القراءات القرآنية[2].

الأحرف السبعة ولغات القرآن:

إن معظم الذين تحدثوا عن لغات القرآن من اللغويين والمفسرين والقراء، لم يغفلوا حديث رسول الله ﷺ ـ الوارد في الصحيحين ـ "أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف"[3].

ومع أن هذا الحديث قد أشكل فهمه على كبار العلماء ـ لأنه بأسانيده المتصلة ورواياته الصحيحة ـ ينص على الأحرف السبعة، إلا أنه ليس نصاً في كون المقصود بالأحرف اللغات أو غيرها.

أما أقوال العلماء في المراد به، فقد بلغت حداً كبيراً، ذكر القرطبي أن ابن حبان البستي أوصلها إلى خمسة وثلاثين قولاً، اقتصر هو منها على خمسة أقوال فقط أثبتها في مقدمة تفسيره[4]، وقال السيوطي: اختلف في معنى هذا الحديث على

(١) الصاحبي في فقه اللغة، ص: ٢٨-٣١ .

(٢) ليس معنى ذلك أن القرآن قد قرئ بكل لحن من لحون أصحاب هذه القبائل فإن من لحونها ما هو مستكره لايتناسب مع فصاحة القرآن وجلال روعته، ولذلك فقد استبعد القرآن الكريم كثيراً من اللحون الخاصة بأصحاب تلك اللهجات كالعنعنة والكشكشة وما إلى ذلك . .

(٣) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن باب : أنزل القرآن على سبعة أحرف، ٦/ ١٠٠، دار الفكر .

(٤) مقدمة تفسير القرطبي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧ م .

نحو أربعين قولاً[1].

وقد ذهب إلى تفسير الأحرف السبعة باللغات السبع جماعة من العلماء منهم أبو عبيد القاسم بن سلام وثعلب وأبو العباس النحوي والكرماني وأبو حاتم السجستاني والطبري، واختاره ابن عطية في مقدمة تفسيره، ووصفه بأنه المذهب الصحيح، ونسبه ابن الجزري في النشر لأكثر العلماء[2]، ونصت على ذلك أشهر معاجم اللغة العربية، ففي لسان العرب: نزل القرآن على سبعة أحرف: أراد بالحرف اللغة، قال أبو عبيد وأبو العباس: نزل على سبع لغات من لغات العرب[3].

واختلفوا في تحديد هذه اللغات اختلافاً كبيراً، ومما نميل إليه في تفسير هذا الحديث ونراه منسجماً مع موضوعنا ومع معطيات كتب لغات القرآن التي أحصت ما يزيد عن ثلاثين لغة، ماذهب إليه عدد كبير من العلماء، وذلك أنه ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد بحيث لا يزيد ولاينقص، بل المراد السعة والتيسير، وأنه لاحرج عليهم في قراءته بما هو من لغات العرب من حيث إن الله تعالى أذن لهم في ذلك.

يقول الشيخ الرافعي: "وإنما جعلها سبعة رمزاً لما ألفوه من معنى الكمال في هذا العدد... وهذا الرمز من ألطف المعاني وأدلها، إذ يجعل القرآن في لغته وتركيبه كأنه حدود وأبواب لكلام العرب كله"[4].

(١) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ١/ ٤٥، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

(٢) النشر في القراءات العشر، ابن الجوزي، ص: ١٩، تصحيح علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) لسان العرب (حرف)، دار المعارف. وانظر "لغة القرآن الكريم، د. عبد الجليل عبد الرحيم، ٩٤-٩٥.

(٤) إعجاز القرآن : مبحث الأحرف السبعة، مصطفى صادق الرافعي، ص ٦٧. وانظر: اللهجات العربية في التراث، علم الدين الجندي، ١/ ١٣٥، الدار العربية للكتاب، ١٩٧٨ م .

وأكد ما في العدد من التيسير الشيخ الحداد بن خلف الحسيني قائلاً: ومما يؤيد أن المراد بالأحرف أوجه من اللغات أن حكمة إتيان القرآن على سبعة أحرف: التخفيف والتيسير على هذه الأمة في التكلم بكتابهم، كما خفف عليهم في شريعتهم... وذلك أنه ﷺ بُعث إلى الخلق كافة وألسنتهم مختلفة، فلو كلفوا كلهم النطق لغة واحدة لشق ذلك عليهم.

النسيج اللغوي للنص القرآني: تواصل وتكامل:

إن الحديث عن لغات القرآن أو عن تاريخ القرآن اللغوي ـ كما سلفت الإشارة ـ حديث حظي بعناية خاصة من لدن جماعة من العلماء ينتسبون إلى تخصصات مختلفة، ويظهر أن هذا النوع من التأليف كان من أول الفنون اللغوية ظهوراً إذ كانت له قيمة على غيره وتفضيل على ما سواه.

فقد ألف في هذا الفن جمعٌ من العلماء إذ تذكر مصادر التراجم أن هشاماً الكلبي (٢٠٤هـ) ألف كتاب "لغات القرآن" كما جاء في الفهرست[١]، وألف الفراء (٢٠٧ هـ) كتاب "لغات القرآن" أشار إليه أبو حيان في تفسيره، كما ألف الأصمعي (٢١٦هـ) كتاب "اللغات في القرآن" ذكره ابن النديم[٢]، وذكر مثله لأبي زيد الأنصاري، والهيثم بن عدي[٣]، وابن دريد ومحمد بن يحيى القطيعي.

وذكر السيوطي في ترجمة أحمد بن علي بن محمد البيهقي (٤٤٥هـ) أنه صنف كتاب "المحيط بلغات القرآن"[٤].

وإنه من المؤسف حقاً أن تكون هذه المصادر مفقودة؛ لأن ضياعها أحدث شرخاً

(١) الفهرست، ابن النديم، ص : ١٠٨، تحقيق رضا المازندراني، دار المسيرة، ١٩٨٨ م.

(٢) البحر المحيط، ٣/١٩٣، والفهرست ٦١ .

(٣) الفهرست ٦١، ٦٧، ٧٣ .

(٤) بغية الوعاة، السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة .

وفراغاً ضخماً في الدراسات القرآنية اللهجية وصلتها من الناحية التاريخية بلهجات القبائل العربية ولغاتها.

والكتاب الوحيد الذي وصل إلينا من هذا الجرد من كتب لغات القرآن، هو كتاب "اللغات في القرآن" لابن عباس، وقد نشر سنة ١٩٤٦ م بمطبعة الرسالة بالقاهرة بتحقيق الأستاذ صلاح الدين المنجد، وقد انتصر السيوطي لهذا الكتاب وأثبته في كل من كتابيه "معترك الأقران" (١) و"الإتقان" (٢)، كما طبع على هامش "تفسير الجلالين" بمصر، وعلى هامش كتاب " التيسير في علوم التفسير" للدريني منسوباً لأبي عبيد القاسم بن سلام، وقد رد هذه النسبة وصححها الدكتور علم الدين الجندي في كتابه عن اللهجات(٣).

واعتمادنا أساساً سينصب على كتاب ابن عباس في توضيح حقيقة التواصل بين لغات العرب في صياغة وبناء لغة القرآن.

لقد عد السيوطي من وجوه إعجاز القرآن احتواءه على جميع لغات العرب، ونقل تحت عنوان: اللغات في القرآن عن أبي بكر الواسطي قوله: " في القرآن من اللغات خمسون لغة" وذكر منها أربعون لغة من لغات القبائل العربية(٤).

وذكر صلاح الدين المنجد في مقدمة تحقيقه لمؤلف ابن عباس تسعاً وعشرين قبيلة، واستدرك عليه علم الدين الجندي سبعاً هي: همدان والأوس واليمن وعذرة وتغلب والخزرج والحجاز، فيصير العدد بهذا ستا وثلاثين قبيلة حاضرة بلغاتها في بنية النص القرآني على مستوى الصوت أو الصرف أو المعجم أو التركيب.

(١) معترك الأقران ١ ٢٠، تصحيح أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م.

(٢) الإتقان ٢/ ٩١-١٠٣ .

(٣) اللهجات العربية في التراث، علم الدين الجندي، ١/ ١٣٧-١٣٩ .

(٤) معترك الأقران ١/ ٢٠٤ .

لقد قرر الدكتور علم الدين الجندي بعد أن عقد مقارنة بين لغات القرآن واللهجات الواردة في مصادر العربية والتفسير أن في كتاب "اللغات في القرآن" المسند لابن عباس وهو الكتاب الوحيد الذي وصل إلينا عن لغات القرآن بلغت أسماء القبائل فيه ستا وثلاثين، فيكون القرآن الكريم وقراءاته مصدراً أوفى من غيره في دراسة اللهجات العربية القديمة، بل هو الحقل الخصيب الذي ينطوي على تاريخ العربية وأصول منابعها الثرة، وإذا طمعنا في كتابة تاريخ للغتنا عليه سمة علمية يجب أن نفتش عن قراءات القرآن أولاً [1].

وسأكتفي ـ طلباً للاختصار ـ بإيراد بعض النماذج للقبائل العربية الحاضرة في اللغة القرآنية من خلال مؤلف ابن عباس، مقيداً بالجانب الدلالي:

١- قريش: وردت قبيلة قريش تسعين مره في كتاب ابن عباس ومن لغاتها: أمانيهم: أباطيلهم/ مخمصة: مجاعة/ يصدفون: يعرضون/ دلوك الشمس: زوالها/ فما زاغوا: مالوا/ عسعس: أدبر/ لفيفاً: جميعاً/ تكاد تميز: تمزق . .

٢- هذيل: وردت قبيلة هذيل سبعاً وأربعين مرة، ومن لغاتها : ملتحداً: ملجأ/ وجعلكم ملوكاً: أحراراً/ واقصد في مشيك: أسرع/ وما مسنى السوء: الجنون . . .

٣- كنانة : وردت قبيلة كنانة تسعاً وعشرين مرة ومن لغاتها: ما يعزب: ما يغيب/ حصوراً : لاحاجة له في النساء/ سرابيل: دروعاً/ ضداً: عدواً. . .

٤- جرهم: وردت قبيلة جرهم ثلاثاً وعشرين مرة، ومن لغاتها: كدأب: كأشباه/ أساطير الأولين: كلام الأولين/ من كل حدب: من كل جانب. .

٥- حمير: وردت قبيلة حمير اثنتين وعشرين مرة، ومن لغاتها: الصرح:

(١) اللهجات العربية في التراث ١/١١٣ .

البيت،/ وسيداً: حكيماً/ سفاهة: جنون/ قد كنت فينا مرجواً: حقيراً/ له مقاليد: له مفاتيح..

ومن الأمثلة أيضاً: لتعلون: لتقهرن بلغة جذام/ ألزمناه طائره: عمله بلغة أنمار/ لأحتنكن: لاستأصلن بلغة الأشعريين/ وحاق بآل فرعون: وجب بلغة اليمن/ مقيتاً: مقتدراً بلغة مذحج/ وعداً: خطباً بلغة طيئ/ الصدفين: الجبليين بلغة تميم/ منسأته: عصاه بلغة حضرموت/ يس: يا إنسان بلغة كندة/ تسيمون: ترعون بغلة خثعم/ بنين وحفدة: الحفدة: الأختان بلغة سعد العشيرة[1].

لقد كان من نتائج هذا التواصل اللغوي أن تجمع في اللغة العربية من المفردات في مختلف أنواع الكلمة اسمها وفعلها وحرفها، ومن المترادفات في الأسماء والصفات والأفعال ما لم يجتمع مثله للغة سامية أخرى، بل ما يندر وجود مثله في لغة من لغات العالم، فقد جمع للأسد خمسمائة اسم، وللثعبان مائتا اسم، وكتب الفيروزآبادي كتاباً في أسماء العسل فذكر له أكثر من ثمانين اسماً، وقرر مع ذلك أنه لم يستوعبها جميعاً، ويروى أنه يوجد للسيف في العربية ألف اسم على الأقل، ويقرر آخرون أنه يوجد أكثر من أربعمائة اسم للداهية [2]. وكان أبو العلاء يحفظ للكلب سبعين اسماً، وتذهب الحكايات تترى..

وما قيل عن الترادف يقال عن المشترك والمتضاد، وعن الحقيقة والمجاز، وكل ذلك من ثمار التواصل اللغوي في صياغة لغة موحدة مؤهلة لحمل الرسالة، ولذلك لم يكن عجباً أن يعد الرافعي هذا الأمر حادثة كونية عظيمة، ولم يكن عجباً كذلك أن يعد السيوطي من وجوه إعجاز القرآن احتواءه على جميع لغات العرب[3].

(١) اعتمدت على كتاب المقتبس في اللهجات العربية والقرآنية، د. سالم محيسن من ص: ١١٢-١٣٢ .

(٢) انظر فقه اللغة، علي عبد الواحد وافي ١٦٨-١٦٩، والترادف في اللغة، حاكم مالك لعيبي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، العراق، ١٩٨٠ م .

(٣) معترك الأقران ١/ ١٩٥ .

لغات غير العرب في بنية النص القرآني:

المعرب هو ما استعمله العرب من الألفاظ الموضوعة لمعان في غير لغتها[١]، ولا خلاف بين العلماء في وقوع الدخيل والمعرب في لغة العرب، لكنهم اختلفوا حول وقوع غير العربي في لغة القرآن الكريم وتضاربت أقوالهم.

يقول أبو عبيد القاسم بن سلام: أما لغات العجم في القرآن، فإن الناس اختلفوا فيها، فروي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء وغيرهم من أهل العلم أنهم قالوا في أحرف كثيرة إنها بلغة العجم منها : حمم واليم والطور والربانيون يقال إنها بالسريانية، والصراط والقسطاس والفردوس يقال إنها بالرومية، ومشكاة وكفلين يقال إنها بالحبشية، وهيت لك يقال إنها بالحورانية، قال: فهذا قول أهل العلم من الفقهاء[٢].

وذهب الجمهور إلى أنه ليس في كتاب الله تعالى شيء بغير لغة العرب لقوله تعالى: ﴿إنا جعلناه قرآنا عربياً﴾[٣]، وقوله تعالى : ﴿بلسان عربي مبين﴾[٤].

وتوسط بعض العلماء في الرأي وصدّق القولين جميعاً، قال أبو عبيد: والصواب عندي مذهب فيه تصديق القولين جميعاً، وذلك أن هذه الحروف أصولها عجمية كما قال الفقهاء إلا أنها سقطت إلى العرب فأعربتها بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب، فمن قال: إنها عربية فهو صادق، ومن قال: عجمية فهو صادق[٥]، فهي عجمية باعتبار الأصل عربية باعتبار الحال كما قرر الجواليقي[٦].

(١) المزهر، السيوطي، ١/٢٦٨ . وانظر: لسان العرب مادة (عرب).

(٢) ينظر المزهر ١/٢٦٨ .

(٣) الزخرف، آية ٣ .

(٤) الشعراء، آية ٢٦٨ .

(٥) المزهر ١/٢٦٩ .

(٦) المعرب، الجواليقي، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الكتب، ط ٢، ١٩٦٩ / . والمزهر ١/٢٦٩ .

وهذا الرأي أقرب الآراء إلى الصحة وأقربها إلى التصور اللغوي؛ لأن اللغة متى اتصلت بغيرها تأثرت وأثرت، قل هذا التأثير أم كثر، ومعلوم أن العرب في جزيرتهم وخصوصاً من سكن منهم الأطراف قد التقوا بغيرهم من أصحاب اللغات الذين جاوروهم أو تاجروا معهم.

فالتاريخ يشهد أن العرب في جزيرتهم كانوا ذوي أسفار وتجارة واسعة، فكانوا على اتصال بكل من جاورهم من أهل الهند وفارس والشام والعراق ومصر والحبشة، وكانت رحلتا الصيف والشتاء مشهوراً أمرهما، ولقد كانت هذه الشعوب على جانب من المدنية والحضارة، فكان من الطبعي تبعاً للمعاملات والأسفار المتداولة بين هذه الشعوب اقتباس كل منها ما هي بحاجة إليه.

يقول ابن عطية في مقدمة تفسيره "كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلغتهم بعض مخالطة لسائر الألسن بتجارات وبرحلتي قريش وسفر مسافرين كسفر أبي عمرو إلى الشام وكسفر عمر بن الخطاب وكسفر عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد إلى أرض الحبشة وكسفر الأعشى إلى الحيرة وصحبته لنصاراها، مع كونه حجة في اللغة، فعلقت العرب بهذا كله ألفاظاً أعجمية غيرت بعضها بالنقص من حروفها وجرت في تخفيف ثقل العجمية، واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها حتى جرت مجرى العربي الفصيح ووقع بها البيان، وعلى هذا الحد نزل بها القرآن[1].

والملاحظة الجوهرية التي ينبغي أن نعرب عنها هي أن الدخيل في لغة القرآن كان على مستوى المفردات بدلالاتها المعجمية فحسب، وذلك محصور في ألفاظ الأعلام أو ألفاظ تمثل شيئاً لا عهد للعرب به، وفي كلتا الحالتين كانت محصورة

(١) انظر: مقدمة المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز، ابن عطية، تحقيق المجلس العلمي، فاس، ١٩٧٥م، والبرهان، السيوطي، ١/ ٢٨٩ .

في الأشياء المادية لا المعنوية، وسأكتفي بإيراد بعض النماذج لبعض اللغات الحاضرة في النص القرآني:

١ - الآرامية: إن الكلمات الآرامية المعربة كثيرة لا تكاد تحصى، وقد أخذت العربية من الآرامية: أسماء النباتات الكثيرة التي تنبت في جزيرة العرب كالرمان والزيت، ومنها ما يتعلق بإدارة الممالك كالسلطان والمدينة والقسط والساعة، ومنها الزجاج والباب والقفل، ومنها أكثر ما يرجع إلى القراءة والكتابة، بناء على كون العرب أخذوا الخط نفسه عن الآراميين[١].

ومنها الألفاظ الدينية: مثل الحواريين والدجال وفرعون وكنيسة وفرقان..

٢ - العبرية: يقول جرجي زيدان : وقد أخذوا عن العبرانية كثيراً من الألفاظ الدينية كالحج والكاهن والعاشوراء وغيرها، وأكثرها نُقل إلى الصيغ العربية؛ لتقارب اللفظ والمعنى في اللغتين لأنهما شقيقتان[٢]، ومن الأمثلة: صنم وجدث وتابوت وتوراة وجهنم وسبت وسبط وشيطان وكاهن..

٣ - الحبشية: وأهم الكلمات الحبشية الموجودة في العربية هي العائدة إلى أشياء دينية كالحواريين ونافق[٣] وهي تشهد بالمناسبات الصحيحة بين المسلمين وبلاد الحبشة قبل الهجرة، ومن الأمثلة: منبر ومحراب وبرهان وطاغوت وكفلين ومشكاة . .

أما الدخيل غير السامي في العربية فأكثره من الفارسية واليونانية واللاتينية

---

(١) ينظر : التطور النحوي للغة العربية، برجشتراسر، ص: ٢٥ - ٢٢٧، ترجمة رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، دار الرفاعي، ١٩٨٢م. وانظر: تفسير الألفاظ في اللغة العربية، طوبيا العنيسي، لبنان، ١٩٦٥م.

(٢) اللغة العربية كائن حي ٣٨ .

(٣) التطور النحوي للغة العربية، برجشتراسر، ص: ٢٢٦.

والهندية، ومن الأمثلة: السندس والياقوت والإستبرق والأريكة والزنديق والزور والمجوس..

ومن أمثل الدخيل اليوناني: الفردوس والقسطاس والقنطار وإبليس وأسطورة والدرهم والزنجبيل والسندس والإنجيل..

ومن أمثلة الدخيل اللاتيني: الدينار والسراط والقميص..

ومن أمثلة الدخيل السانسكريتي (الهندي) الياقوت والكافور والمسك والزنجبيل...

وقد أخذت العرب عن الهنود كثيراً من المصطلحات التجارية وأسماء السفن وأدواتها وأسماء الحجارة الكريمة والعقاقير والطيب وما يحمل من بلاد الهند.

وقد تم هذا الاقتباس والأخذ بعد أن تم التواصل بين مختلف هذه الشعوب، ومع أنه من العسير تحديد الكلمات الدخيلة وفي أي وقت دخلت، ومع وجود التشابه والاختلاط في نسبة بعض الكلمات إلى أصولها المتعددة أحياناً، فإن وجود الدخيل في اللغة العربية وحضوره في النص القرآني حقيقة لا يمكن إنكارها.

لقد اتضح من خلال هذا العرض أن لغات كثيرة أسهمت في بناء لغة القرآن، كما اتضح من خلال استقراء " اللغات في القرآن " لابن عباس أن معظم القبائل العربية كانت حاضرة وممثلة في النص القرآني، ولعل الحكمة والمشيئة الإلهيتين كانتا وراء هذا " الحدث العظيم"، فالذي ألف بين القلوب المتناثرة قادر على أن يؤلف بين هذا الجرد الهائل المتراكم من اللغات تأليفاً يدل على عظمة قدرته وبديع صنعته، ومما لاشك فيه أن الذين بحثوا في إعجاز القرآن انطلقوا من حسن هذا التأليف وبراعته، وجعلوه وجهاً من أرقى وجوه الإعجاز، ومما لاشك فيه أيضاً أن هذا التوحد كان إيذاناً بتوحد بشري لا فرقة بعده، وأن نزول القرآن بلغة القبائل

العربية حجة عليها، وشرف عظيم لها في الوقت نفسه.

وقد كان العلماء على وعي بضرورة الإلمام بلغات العرب قبل الخوض في تفسير كلام الله تعالى، يقول ابن المديني : "سمعت مالك بن أنس يقول: لا أوتى برجل يفسر كتاب الله غير عالم بلغة العرب إلا جعلته نكالاً".

وكان مجاهد يقول: "لا يحل لامرئ يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب".

ومن جهة أخرى يعدُّ وجود بعض الألفاظ غير العربية في النص القرآني شرفاً عظيماً لأصحابها وتخليداً للغاتها، وهو مما يدل على عالمية وشمولية هذه الرسالة وأنها مرسلة للبشرية جمعاء عربيها وعجميها، وهي مدينة للقرآن ببقائها واستمرارها.

* * *

المصادر والمراجع

* الإتقان في علوم القرآن/ للسيوطي؛ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.
* إعجاز القرآن والبلاغة النبوية/ مصطفى صادق الرافعي .ـ بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٢٦م.
* أهم المدارس اللسانية/ عبدالقادر المهدي.
* الإيضاح/ للقزويني؛ شرح محمد عبدالمنعم خفاجي .ـ بيروت: دار الكتاب اللبناني.
* البحر المحيط/ لأبي حيان.
* البرهان في علوم القرآن/ للزركشي؛ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .ـ بيروت: دار الفكر، ١٩٨٠م.
* بغية الوعاة/ للسيوطي؛ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .ـ القاهرة: عيسى البابي الحلبي.
* البلغة في أصول اللغة/ للقنوجي.
* البيان والتبين/ الجاحظ؛ تحقيق عبدالسلام هارون.
* الترادف في اللغة/ حاكم مالك لعيبي .ـ بغداد: وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٨٠م.
* التطور النحوي للغة العربية/ برجشستراسر؛ ترجمة رمضان عبدالتواب .ـ القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٨٢م.
* تفسير الألفاظ في اللغة العربية/ طوبيا العتيبي .ـ بيروت: [د.ن]، ١٩٦٥م.
* تفسير القرطبي .ـ القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٩٦٧م.

* الحيوان/ للجاحظ؛ تحقيق عبدالسلام هارون .ـ ط٢ .ـ القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٩٦٥م.
* الخصائص/ لابن جني؛ تحقيق محمد علي النجار .ـ بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٥٢م.
* الصاحبي في فقه اللغة/ أحمد بن فارس؛ تحقيق السيد أحمد صقر .ـ القاهرة: عيسى البابي الحلبي، ١٩٧٧م.
* صحيح البخاري .ـ بيروت: دار الفكر.
* علم اللغة/ علي عبدالواحد وافي.
* الفاضل في اللغة والأدب/ للمبرد؛ تحقيق عبدالعزيز الميمني .ـ القاهرة: دار الكتب، ١٩٥٥م.
* الفهرست/ لابن النديم؛ تحقيق رضا المازندراني، بيروت: دار السيرة، ١٩٨٨م.
* قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية/ أميل يعقوب، بسام بركة.
* الكليات/ للكفوي؛ تحقيق عدنان درويش، محمد المطري .ـ دمشق: [د.ن]، ١٩٨٢م.
* لسان العرب/ لابن منظور .ـ القاهرة: دار المعارف، [د.ت].
* لغة القرآن في جزء عم/ محمود نحلة.
* لغة القرآن الكريم/ عبدالجليل عبدالرحيم.
* اللهجات العربية في التراث/ علم الدين الجندي .ـ تونس: الدار العربية للكتاب، ١٩٧٨م.
* المحرر الوجيز/ لابن عطية؛ تحقيق المجلس العلمي، فاس: [د.ن]، ١٩٧٥م.

* مجالس ثعلب/ تحقيق عبدالسلام هارون .ـ القاهرة: دار المعارف.

* المزهر/ للسيوطي؛ تحقيق محمد أحمد جاد المولى .ـ القاهرة: دار إحياء الكتب العربي، [د.ت].

* المصباح المنير/ للفيومي .ـ بيروت: المكتبة العلمية، [د.ت].

* معترك الأقران/ للسيوطي؛ تصحيح أحمد شمس الدين .ـ بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨م.

* المعرب/ للجواليقي؛ تحقيق أحمد محمد شاكر .ـ ط٢ .ـ القاهرة: دار الكتب، ١٩٦٩م.

* الموافقات/ للشاطبي؛ عني به عبدالله دراز.

* نحو بلاغة جديدة/ عبدالمنعم خفاجي، عبدالعزيز شرف.

* نحو وعي لغوي/ مازن المبارك .ـ بيروت: دار المعرفة.

* النشر في القراءات العشر/ لابن الجزري؛ تصحيح علي محمد الصباغ .ـ بيروت: دار الكتب العلمية.

* * *